عملنا في جريدة واحدة

حسين بن حمزة

عزيزي أنسي ..
مرت سنة كاملة على انقطاعك عن المجيء إلى الجريدة التي نعمل أنت وأنا فيها. واسمح لي أولاً، وقبل أن أكمل هذه الرسالة، بأن أتأمل هذه الجملة الاستهلالية التي كتبتُها للتوّ، لكي أتفحص مجدداً فكرة أننا عملنا في جريدة واحدة، فهذه الجملة التي تحولت مع الوقت ومرور السنوات إلى مجرد بداهة يومية يفرضها العمل الصحافي اليومي، لا تزال صعبة التصديق وتدعوني إلى التأمل والامتنان الغامض لمسألة ربما تكون قد خطرت في بالك أو لعلها لم تخطر، وهي مسألة أن يأتي شاعر شاب من الأطراف إلى بيروت. أن يأتي دفعة واحدة، وأن يجد نفسه في قلب المدينة التي كان قد حفظ مغامرتها في الحداثة وفي الشعر وفي النظر إلى الحداثة وإلى الشعر أيضاً، وأن يكون قد تدرّب على هذا المجيء بقراءة ما كُتب في هذه العاصمة الذهبية، وما خاضه شعراؤها وكتّابها وفنانوها في مجلاتها وصحفها.
نعم يا عزيزي، لقد حلم هذا الشاعر بمدينتك وبمزاج مدينتك التي حظيت بموهبة أن تتسع لشعراء يأتون إليها من الجوار، أو يكتفون بإرسال قصائدهم لتنشر في صحفها، أو يرسلون دواوينهم لكي تُطبع لدى ناشريها. مدينة ظلت تغوي الآتين إليها من بعيد، وتحتضن نصوصهم وأفكارهم وطموحاتهم، بل إنها سمحت لهؤلاء «الغرباء» بأن يعشقوها ويمتدحوها أكثر من شعراء المدينة «الأصليين»، إلى أن أصبحت للمدينة ذاكرتان وصورتان، واحدة للمقيمين فيها، وأخرى لمن جاؤوها من الخارج.
إلى هذه الذاكرة، وإلى هذه الصورة، كان الشعراء يأتون إلى بيروت. الصورة التي كانت قد تكسرت في الحرب الأهلية وعبث الحروب التالية لها، ولكن الشاعر الشاب كان يحلم بالانضمام إلى فضائها، ومعه مخطوطة ديوانه الأول الذي أجّل نشره في بلاده، آملاً خروجه من مطبعة بيروتية، لأنه اعتقد طوال الوقت أن بيروت ستمنح المخطوطة حياة أفضل تتنفس فيها، كما أن أغلب قصائدها كان مكتوباً بمخيلة شاعر شاب يضع قدماً في أرض البلاد، بينما قدمه الثانية تتأهب للقفز إلى بيروت. وبيروت كانت تعني أشياء وأسماء كثيرة. كانت تعني «مجلة شعر»، و«الآداب»، و«حوار» و «ملحق النهار». وكانت تعني لائحة طويلة من الشعراء الذي صنعت المدينة أسماءهم، وصنعوا هم اسمها أيضاً. وكانت تعني «لن» باكورتك الشعرية التي كان عنوانها وحده مجفّلاً وغريباً مثل أي كتابة لا تأتي من الماضي أو من المتداول.
أصارحك بأني، وكثيرين من أبناء جيلي، كنا منحازين إلى عدد من الشعراء الذين جاؤوا بعد الحداثة التي بدأتها مع أقرانك، وأخذوها إلى حساسية شعرية ملموسة وجزئية ومادية وواقعية أكثر. ولكن ذلك ما كان كافياً لتجنّب الهالة المشعّة التي أحاطت بأسمائكم ولا تزال. ما كان ذلك كافياً لتجنّب تأثير «لن» وقيمتها التأسيسية في قصيدة النثر. أتذكر الآن «لن» بنسخة «الدار الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع» التي لا أعرف بأي طريقة وصلت إلى مسقط رأسي، أو لعلها وصلت إلى حلب، حيث كنا مجموعة شبان سوريين يفكرون في قصيدة لائقة بالمستقبل. أتذكر بيان قصيدة النثر في مستهلّها. وأتذكر الدواوين التي تلته، ثم «خواتم» التي نُشرت أولاً في مجلة «الناقد». كل ذلك كان جزءاً من صورتك كشاعر خلط الرّقة باللعنة، وحلم بكتابة قصيدة كاملة من الكلمات المنفردة، ومن الكلمات المزحزَحَة عن معناها القاموسي، ومن أشباه الجمل، ومن التأتأة والتلعثم، ومن السطور الناقصة. قصيدة تدين للتعذّر لا للاستطراد.

> **أفسدْتَ الجملة العربية في البدايات، ولعبت بمصائر الاستعارات، وقدّمتَ التلعثم على الفصاحة**

كانت «لن» تسبقك إلينا، وتحوّلك إلى هالة خالصة، لا إلى شاعر تطوّقه مثل هذه الهالة فقط. كنتَ كذلك حين كنت تتردد كرئيس للتحرير إلى مكتبك في الطابق الثامن لجريدة «النهار». إلى هناك، سيصعد الشاعر الشاب، ويُفاجأ باستقبالك له على الباب. سيهديكَ نسخة من مخطوطته التي كانت قد صدرت وقتها. أنت تتصفحها بسرعة، وتمتدح سطوراً فيها، وهو غارق في فكرة أنه جالس بصحبة الاسم الذي قرأه برهبة البدايات.
نعم هي صحبة الاسم التي ستحدث لاحقاً، وستستمر ثماني سنوات في الجريدة التي أنتَ وأنا عملنا فيه معاً. وهي ما بدأتُ به هذه الرسالة على أمل أن أكملها، ولكن ليس قبل أن تعرف كم أنا مدينٌ لتلك الصُّحبة بأشياء قد لا تخطر لك. نعم لا يزال صعباً تجنّب إحساس الشاعر الشاب الآتي من الأطراف تجاه معلم كبير. إحساسٌ حرصتَ أنت على أن تطرده دوماً في أحاديث (قليلة على أي حال) تبادلناها في أروقة الجريدة ومكاتبها.
«إنني حقاً متلعثمٌ»، كتبتَ هذه الجملة في «لن»، وها أنا أستعيدها لتلائم تلعثمي. «أنسي وأنا عملنا في جريدة واحدة»، أقولها الآن لذاك الشاعر الشاب الذي يكتب لك هذه الرسالة لكي تكون مدخلاً لاستعادتك في الذكرى الأولى لغيابك. سأستعيد عبارتكَ المتعذّرة والشاقة في «لن» و«الرأس المقطوع»، وأصادق على وصف عباس بيضون بأنهما كانا «ورشة شعرية» لم تُستنفد إلى اليوم، إلى جانب أنك بعدهما تجاوزت «تعذّر القول» إلى قصائد أكثر تخففاً واستطراداً وفيها قليل أو كثير من الغناء والطراوة. سأقول كما قال كثيرون إن «ماضي الأيام الآتية» هو كتابي الشعري المفضّل، وإن «الشيطان» الذي كنتَهُ في دواوينك الأربعة الأولى غلَبَتْهُ «الرِّقة» في «الرسولة بشعرها الطويل حتى الينابيع». الرِّقة التي ستجعل قصيدتك المتوترة والضارية تنكسر وتتصدع في بعض المواضع. التصدعات والشقوق كشفت الأحشاء الثمينة لنبرتك الهجومية والشرسة، بينما راح يعلو الغناء الخافت الذي لطالما أجّلْتَهُ. غناءٌ سيسهل تحويله لاحقاً إلى نثر مشعّ في «خواتم». لقد غلبتْكَ الرِّقّة، ولكنها لم تفلح في انتزاع لغتك المتوثبة ومخيلتك المتوهجة ونظرتك الشابة إلى العالم. كانت «خواتم» أشبه بقصائد مسترخية ومسترسلة من دون أن يغيب عنها غضب الشاعر وشخصنته وانحرافاته عن السياقات العمومية. كانت نصوصاً في الحب والشعر والسياسة واللغة والموسيقى والتاريخ والجمال... والموت، ولكنها لم تكن يوماً حكمةً باردةً أو قولاً مأثوراً. في «خواتم»، تحدثتَ مع القارئ/ القارئة كصديق/ صديقة. أفسدْتَ الجملة العربية في البدايات، ولعبت بمصائر الاستعارات، وقدّمتَ التلعثم على الفصاحة، والركاكة على الجزالة، ثم خطر لك أن تكشف هشاشتك وضعفك وإنسانيتك المعطوبة.
نعم عزيزي أنسي. لقد مرت سنة كاملة على انقطاعك عن المجيء إلى الجريدة، وسنة مماثلة على انقطاعك عن كتابة «خواتم» كَ الأسبوعية، ولكن جملتك لا تزال محتفظة بشبابها ومشاكستها وهجوميتها. جملة تحتفظ بحق الصمود أمام الزمن. جملة طرية ومتوهجة سيظل بُخار الجودة يتصاعد منها كرغيفٍ ساخن.

(هيثم الموسوي)

مثل رشّة عطر

يزن الحاج

عزيزي أنسي،
ها قد مرّ عامٌ على أولى كتاباتي عنك. لم أشعر بمرور كل هذه الأيام، هل شعرت أنت بذلك؟ لا أعلم إن كان الزمن لديك ينقضي بالسرعة ذاتها كما هنا. بالأحرى، لا أعلم ولا أكترث. كلّ ما يهمّ «الأحياء» هو مرور زمنهم الخاص، لا زمن من رحلوا حتى لو كانوا مقرّبين. وأنت لست مقرّباً إلى هذا الحد. لست كاتبي المفضل لو أردت الصراحة. أنت أحدهم بلا شك، ولكنك لست المفضل.
ربما لا يصلح المقطع السابق كافتتاحية تليق بذكراك الأولى. ولكن هذا ما خطر لي فور أن كُلّفت بكتابة رسالة إليك. لا أنكر بأنني كنت أريد التهرّب من هذا «الواجب»، لكنّني غيّرت رأيي وقررت أن أكتب ما أشعر به بكل صراحة. في الحقيقة، لو أردت صراحةً أكبر، كنت أريد أن أفتتح الرسالة بالقول «لمَ متّ منذ عام لتضعني الآن في هذا الموقف السخيف»، إذ وجدتُ بأنّ السخافة تليق أحياناً بهذا العام الذي انقضى، فقرّرت المضي في الكتابة بضمير مرتاح، بخاصة أنك لن تتمكّن من الرد عليّ. أو هذا ما أعرفه، على الأقل، عن عالمك الآن. رسائل لا تصلح إلا للتجاهل وعدم إمكانية الرد. شعور رائع برأيي. ولذا، سنُبقي الأمور على ما هي عليه. لنتحدث عن البداية، وعن الافتتاحيّات.
عرفتك منذ عشر سنوات. لم يكن ابن التاسعة عشرة حينذاك يعرف عنك أكثر من عنوان مغر لمجموعتك الأولى «لن»، وتاريخ طويل مع جريدة «النهار». لم أقرأ «لن» في البداية، ولم أتشجع لقراءتك إذ ارتبط اسمك بجريدة أكرهها، إلى أن تعثّرت بـ «الوليمة». كان «الوليمة» أول ديوان أقرؤه لك. قرأته بموقف كاره مسبق للأسباب السابقة، عدا عن عنوانه «غير الشعريّ»، إضافة إلى تشابه غلافه مع غلاف ديوان لمحمود درويش، وهو كان شاعري المفضّل آنذاك. كان الغلافان متماثلين تقريباً: «الوليمة» و«لماذا تركت الحصان وحيداً». أدركت لاحقاً بأنّ التماثل لم يكن يقتصر على الغلاف، إذ كان كلا الكتابين انطلاقة جديدة لكلّ منكما، ولذا عشقت الكتابين بالدرجة ذاتها، بل عشقت «الوليمة» على نحو أكبر لأنه فتح أمامي بوابة جديدة لقراءة شعر «جديد». لا أعني الشكل هنا، ولا المضمون حتى، بل سحر اللغة، وبراعة المخيّلة، وإغواء الشعر حين يدور حول المرأة بطريقة أنسي الخاصة، حيث تكون فيه المرأة ولا تكون، وحيث يكون الشعر الحقيقي في آخر مكان يمكن أن تتوقّعه، وآخر عنوان قد يخطر في ذهنك. ثم كان «خواتم» الذي استند إليه مقالي عنك قبل عام: كان حواراً من طرف واحد، إذ كنت قد رحلت، وكان الحوار مع «خواتمك». في هذا الحد الفاصل بين عالمين، كان لقاؤنا الأول، والآن رسالتنا الأولى. بين عالمٍ زائلٍ للأحياء، وعالمٍ قصيٍّ للراحلينَ.

> **«الوليمة» هي أنسي، كما «النهايات» هي عبد الرحمن منيف، و«يا طول عذابي» هي أم كلثوم**

أعدت قراءتك مرات عدة خلال هذه السنوات العشر لأثبت لنفسي مدى سذاجتي وحماقة مواقفي المسبقة. كنتُ في اندفاعة الشباب الجامحة آنذاك حيث لا حيّز لدرجات الألوان، ولا مكان لجزيرة في المحيط المتلاطم. أدركت لاحقاً (في السنة الأخيرة خصوصاً) بأنّ تلك السذاجة والحماقة تسم مجتمعنا بأسره. أتحدث عن المجتمعين السوري واللبناني على الأقل. كارهوك بالأمس أحبّوك اليوم لأنك أصبحت في «الأخبار»، وكانوا سيكرهونك لو انتقلت إلى تلك الصحيفة قطرية التمويل. ومحبوك بالأمس كرهوك اليوم وكانوا سيحبّونك غداً ربما لولا أنك فاجأت الجميع فرحلت، لتبقى ذلك «الأنقى» من بين جميع فرسان مجلة «شعر»، ولتبقى بعيداً عن كلّ من حاول تصنيفك. «من يصنّفك يقتلك»، هذا ما كنتَ تؤكّده دوماً، لذا لم يستطيعوا قتلك إلى اليوم.
سيتذكّر معظم قرائك أو حتّى حفظة العناوين من «مثقفينا» كتبك الشهيرة، وسيغفلون عن «الوليمة». ولذا سأُفشي سرّك لمن يريد قراءتك فعلاً. «الوليمة» هي أنسي، كما «النهايات» هي عبد الرحمن منيف، كما «الاعترافات» هي ربيع جابر، كما «النحنحات» هي إبراهيم صموئيل، كما «يا طول عذابي» هي أم كلثوم، وكما «اسقنيها» هي أسمهان. تلك الأعمال شبه المنسيّة هي ما سيتبقى بعد امتلاء الذاكرة بالعناوين المكرّسة. تلك الهمسات هي ما سيتبقى بعد تلاشي الصخب. ولذا ستبقى أنت، حتى بعد مرور سنوات وسنوات على الرحيل، كما العطر، دون أن يكون ثمّة معنى للعلب التي وضعوك فيها، بصرف النظر عن بهرجتها.